نشأة المدن على الأنهار وفيضاناتها وتغيير مجراها

أولا: نشأة المدن على الأنهار:

لقد حظيت المياه بمنزله مهمة عند السكان القدماء لبلاد الرافدين، فالمياه هي مصدر الحياة التي قدسها الإنسان واستعملها بشكل كبير وواسع في حياته اليومية في مجالات عديدة مثل الشرب والاستحمام والغسل والزراعة والصناعة والري والمعتقدات الدينية، وبرزت المياه بشكل جلي في الأساطير والملاحم والفن وغيرها . لقد كان للفكر الديني في بلاد الرافدين دوراً أساسيا في مجالات كثيرة من حياة الإنسان اليومية وكان لعنف البيئة في البلاد السبب المباشر في ظهور الطقوس الدينية التي كانت تدور أغلب مواضيعها حول تقديس ظواهر البيئة والعوامل المؤثرة فيها مثل الأمطار والفيضانات والشمس والقمر وغيرها. وكانت المياه أولى الموجودات الطبيعية التي قدمها الإنسان وعدها إلها، فقد رمزاً له بالمياه التي تدل على الخلق وديمومة الحياة و الطهارة الروحية والجسدية، ورمزاً دالاً على الثواب والعقاب.

وتعد المياه المصدر الرئيس في غذاء الانسان سواء عن طريق حاجته المباشرة لها كشراب، أو عن طريق الحاجة الماسة لها في النتاج الزراعي، لذا نجد أن تواجد الانسان كان ومازال مرتبط بوجود هذه الأنهار، فقامت المدن الأولى على ضفاف الأنهار للإفادة منها، واعتمدت هذه المدن بالدرجة الاساس على نظام الري في زراعة المحاصيل، وبدأت هذه المدن على شكل قرى صغيرة وتطور تشيئا فشيئا إلى ان وصلت إلى المدينة .

وتعرف المدينة بأنها إحدى مستقرات الإنسان التي تطورت عن القرية الزراعية بوصفها المستقر الذي سبقها وقد نشأت في بلاد الرافدين، مجموعات من المدن في الشمال والوسط والجنوب.

وقد كانت بدايات الاستيطان في شمال بلاد الرافدين عبارة عن واحات وقرى زراعية صغيرة متباعدة ومتناثرة على التلال وفي المناطق الجبلية كل منها مكتفية ذاتياً وشبه معزولة عن غيرها . وقد بدأت بواكير هذه القرى في جرمو و حسونة وسامراء، التي تمثل بداية مرحلة انتقالية لتطور القرى وانتشارها .

وعادة ما تتكون المدينة من ثلاثة أجزاء أولها المدينة الداخلية أو المنطقة الوسطى وثانيها المدينة الخارجية وثالثها الثغر، أما فيما يتعلق بحقول وبساتين المدن فأنها كانت تسقى عن طريق النهر أو القناة التي تقع عليها أو بالقرب منها المدينة.

لقد أثبتت التنقيبات الأثرية أن منطقة القسم الجنوبي من بلاد الرافدين كانت تحتوي على شبكة واسعة من الأنهار والمجاري المائية التي قامت على ضفافها القرى والمدن، وأن بعض من هذه الأنهار ظل مستعملا لقرون عديدة ، وقد بني سكان بلاد الرافدين أولى المدن منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ، وفي بداية الألف الثالث قبل الميلاد وأن أكثر المدن السومرية في جنوب بلاد الرافدين نشأت على ضفاف الأنهار أو قريبه منها مثل مدينة أور وأريدو التي أدت دوراً مهما في حضارة بلاد الرافدين .

إن ظاهرة تغيير مجاري الأنهار في منطقة السهل الفيضي تركت أثرها الواضح في هجرة السكان للمدن والمستوطنات بسبب ما يحمله النهران من كميات كبيرة من الطمي والغرين التي سببت ارتفاع قاعي النهرين وازدياد خطر الفيضان، وغالباً ما أخذ بالحسبان الموقع الخاص بالمدينة عند بنائها نظرا لكون المياه عنصر الحياة للإنسان والحيوان والنبات على حد سواء ، في العادة تنشا المدن بالقرب من مصادر المياه وخاصة الانهار وقد أشار أحد النصوص المسمارية إلى هذا الجانب نقرأ : ((**... يجب أن يأخذ المدينة إلى أخرى على ضفاف نهر الفرات...**))

ثانيا: فيضان الأنهار:

تعد الفيضانات من الظواهر الخطيرة التي تواجه السكان القدماء في السهل الفيضي بسبب انحدار السطح والتربة الغرينية الرخوة التي كونتها ترسبات الأنهار في أثناء العصور القديمة ، ويسبب هذا الانحدار آثار سلبية تتمثل في انكسار ضفاف الأنهار والمجاري المائية بعد فيضانات مدمرة في مدد مختلفة مما سببت انحسار في نشاط المراكز التجارية للمدن الواقعة على ضفافها وتخريبها ودمار الأراضي الزراعية .

وعرف عن النهرين العظيمين دجلة والفرات الفيضانات المدمرة المفاجئة ، فيفيض نهر دجلة في شهر نيسان، في حين يفيض نهر الفرات في شهر نيسان.

لقد عرف سكان بلاد الرافدين خصائص وميزات نهري دجلة والفرات ، لا سيما ظاهرة ارتفاع مناسيب الفرات على دجلة وهدوءه وبطئ سيره، وعرفوا ايضا الطرق المتبعة لدرء خطر الفيضان وذلك بإقامة السدود التي تحتاج جهود جبارة وأيدي عاملة كبيرة. ونظراً لأهمية الطوفان فقد اتخذ في احيان معينة تاريخا ارخ به حكام وملوك بلاد الرافدين، فعلى سبيل المثال ارخ هذا الحدث أحد ملوك لكش المدعو اور بانو (٢٠٩٣ – ٢٠٨٠ ق.م) في احدى سنوات حكمه فيذكر : **((السنة التي فيها غمرت المياه حقل كو ايدينا))** . لقد دفع الفيضان المدمر المزارعون إلى عمل السداد الترابية على ضفتي النهرين لتقليل خطر الفيضان وقد نشأت تلك السدود من مواد عدة، منها القصب والبردي والتراب.

ثالثا: تغير مجاري الانهار:

تؤكد المصادر الأثرية والتاريخية لبلاد الرافدين ارتباط نشوء الحضارة منذ عصور قبل التاريخ بالنهرين دجلة والفرات وروافدهما ، حتى انه عرف بالتسمية (Mesopotamia) التي تعني بلاد النهرين أي دجلة والفرات) وتعد الأنهار من أهم

الموارد المائية التي زادت من نمو وازدهار اقتصاديات الشعوب القديمة ومنها شعب بلاد الرافدين التي انعم الله عز وجل عليها بالنهرين العظيمين .

ويعد نهري دجلة والفرات من أطول الأنهار في المنطقة وكان لهما الفضل بشكل كبير في إرواء الأراضي بالمصادر المائية، إذ أدرك السكان القدماء البلاد الرافدين أهمية الري نظراً لاعتماد زراعتها بشكل أساس وكبير على مياه الأنهار التي عرفت بالمنطقة الأروائية . واتصف النهران بالشدة والعنف وعدم انتظام فيضانهما . وتؤكد الدلائل من أن سكان العراق بذلوا جهودا كبيرة من أجل السيطرة على النهرين بما أقاموه من سدود ونظام للري

وتعد القوى الباطنية الأرضية العامل المسؤول عن رسم أشكال سطح الأرض ومن تلك الأشكال والتضاريس الأنهار إذ إن عدد من العوامل الخارجية أسهمت في إعطاء المعالم الدقيقة لشكل الأرض التي تستمد طاقتها من الشمس ، فالشمس هي مصدر الحرارة المحركة لتيارات الهواء، والباعث على تأخر الماء من المحيطات وسقوطه بعد ذلك مطرا أو ثلجا على اليابسة، والهواء هو المحرك للأمواج ، هذه العوامل في حركتها الدؤوبة تتولى تشكيل وجه اليابسة وتظهر معالمه . ويتفاوت شكل سطح الأرض في بلاد الرافدين من مكان لآخر فالمناطق الجبلية تكون وعرة وشديدة التضرس ، أما الهضاب تكون أقل وعورة وتضرسا والبعض منها ذات سطح منبسط ، بينما السهول يمكن استغلالها في نشاطات كثيرة بسبب انبساط سطحها فهي تمثل مركز النشاط البشري بأنواعه المختلفة .

ولعبت العوامل الطبيعية دورا اساسيا منذ العصور الموغلة في القدم في تغيير تضاريس الأرض بين الحين والآخر وإلى يومنا هذا وأشتمل ايضا تغيير شكل الأنهار وتحويل اتجاهاتها ، لاسيما الترسبات الهائلة فيما يعرف بالسهل الفيضي (الرسوبي) وتتكون تربة السهل الفيضي من مادة الرمل التي كانت تزيد بنسبة أكبر

على مادة الطين مشكلة بعض التلول التي كانت تتراوح في ارتفاعها أحيانا ثمانية أمتار.

وتجدر الإشارة إلى أن المناخ أيضاً بعد أحد العوامل الرئيسة في تشكيل بعض المظاهر الأرضية، ومنها الأحواض النهرية ويتمثل ذلك بتأثيره في كمية المياه الموجودة في الحوض النهري واختلافه من عام إلى آخر، فضلاً عن أن المناخ ساعد في تطور الأحواض النهرية عن طريق العمليات الجيمورفولوجية، فهو يؤثر في تغير المجاري المائية ومعدل الحت والتجوية، ويبرز تأثيره في العمليات الخاصة بالتعرية والإرساب النهري كونها ترتبط بشكل كبير بعناصر المناخ.

و تشير المصادر التاريخية أن أهم التغيرات في مجاري الأنهار حصلت في عصر الهولوسين (Holocene) نتيجة عوامل التعرية و الأنشطة البشرية، وكان مناخ العراق في هذا العصر مناخ دافئ في حدود (١١٠٠٠٠ – 10000الألف ق م) ، ثم تحول إلى مناخ جاف واستمر إلى يومنا هذا.

إن المتتبع لمجرى النهرين دجلة والفرات يجدهما يجريان بانحدار واطئ وبشكل متعرج مما نتج عنه كثرة الترسبات الغرينية التي زادت من ارتفاع مستوى قاع النهرين وفيضانهما المفاجئ . أن النهر الكبير البطيء يحمل من الترسبات الغرينية ما يفوق ما يحمله النهر الصغير السريع الجريان في منطقة السهل الفيضي.

ويسهم النهرين دجلة والفرات بشكل كبير في عمليات التعرية النهرية، إذ يقوم النهرين بعملية الحت بطرائق كثيرة والتي تعتمد على مكونات المجرى والمواد التي يحملها النهر، وأهم العمليات التي تنشأ عن النحت النهري عملية الصقل أو البري ، التي تنشأ من احتكاك الحبيبات والرواسب.

وقد أسهمت ترسبات الطمي النهري كعامل الرئيس في تغير مجاري الأنهار في بلاد الرافدين، إذ عانت بعض الأنهار تحولات عديدة عبر تاريخها الطويل ومنذ نتيجة الترسبات الكثيرة فإن المجرى الأصلي غالبا ما انتقل إلى احد فروعه الذي العصور الجيولوجية وعصور قبل التاريخ حتى وقتنا الحاضر ، وبالنظر إلى تعدد فروع دجلة والفرات في السهل الرسوبي وتعرض المجاري الرئيسة للاندثار نتيجة الترسبات الكثيرة فإن المجرى الأصلي غالبا ما انتقل إلى احد فروعه الذي وسع مجراه فأصبح الفرع عمود النهر . وكان للمسح الأثري للتلول المنتشرة في سهول بلاد الرافدين الرسوبية العامل الرئيس في تحديد مجاري الأنهار القديمة لاسيما دجلة والفرات في المنطقة الوسطى والجنوبية.

ويتضح مما تقدم أن هناك مجموعة من العوامل أسهمت في تغير مجاري الأنهار في بلاد الرافدين أهمها العوامل الطبيعية والرواسب الغرينية والتراكيب تحت السطحية. أن منطقة السهل الفيضي تعرضت إلى حركات أرضية بطيئة وطويلة الأمد أمتد تأثيرها إلى المناطق الجنوبية من بلاد الرافدين.